© ٢٠١٥ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
عدد خاص (٧-أ)، أبريل ٢٠١٥م، ص١٦٧-١٩٠

أسس الحضارة في القرآن الكريم وآثارها على الحضارة الإنسانية(*)

د. حمزة حسن سليمان صالح[١]

ملخص

إن الحقيقة الثابتة التي نعرفها جميعاً، وسيصل إلى القناعة بها كلُّ باحث مقارن عاقل منصف، هذه الحقيقة، هي أنه ليس في الدنيا قديماً وحديثاً كتاب كالقرآن كان وما يزال منطلق الإشعاع الفكري والروحي، بل والإشعاع الحضاري الإنساني على مدى العصور، فكان من إنجازات القرآن الكريم ما عرفه العالم كله من بناء للحضارة وتنمية لمختلف أنواع العلوم والمعارف، فمنهاج القرآن في ميدان تنمية العقل التي مزجها بتزكية النفس، هو السرّ الذي جهله نابليون وأمثاله، وهو السر الذي سما صُعُداً بالشعوب المتخلفة، فأنقذها من تخلفها، ووثنيتها، وجهلها، وحررها من الاضطهاد، والاستعمار، وآخى بين أسودها، وأبيضها، و أصفرها . إن مدرسة القرآن التي ربّتْ طفولة العقل والنفس، حتى بلغا أشدهما، فصارا العقل الحكيم، والنفس الزكية، وكان بجهادهما القرآني أن انقلبت عشرات الأمم والشعوب المختلفة بالعرق، واللغة، والعقيدة، إلى خير أمة أخرجت للناس، مُوحَّدَة الآمال والآلام.

كلمات دالَّة: حضارة إسلامية، حضارة إنسانية، ثقافة، كون، علاقات اجتماعية.

(*) How to cite this article: Salih, H. H. S. (2015). "Usus al hadhārah fil Qur'ān al Karīm wa Athāruhā ala Hadhārah al Insāniyyah", QURANICA Special Issue 7a, (2015): 167-190.

١ أستاذ مساعد، التفسير وعلوم القرآن، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، السودان، ortashi_555@yahoo.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، فاطر السموات والأرض ومن فيهن، قيوم السموات والأرض ومن فيهن، خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور. والصلاة والسلام على رسله منشئي الحضارات الإنسانية الراقية، وفاتحي سبل التقدم والرقي الإنسانيين، وأتم الصلاة والتسليم على من كملت ببعثته الأسس الحضارية محمد النبي العربي الذي اصطفاه الله لتبليغ رسالته للناس جميعًا، فأدى الأمانة، وأخلص النصيحة، ووضع الإنسانية بتعاليمه وتربيته في طريق المجد الصاعد إلى قمم الحضارة المثلى الفكرية والروحية والنفسية والمادية، الفردية والاجتماعية، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان من الذين أسهموا في بناء حضارة المسلمين، مستهدين بهدي كتاب الله، وسنة رسوله.

إن من تحصيل الحاصل، ومن البديهي، أن نجهد أنفسنا في البحث عن إثبات ما لِوَحْيِ القرآن من فضل على تنمية العقل الإنساني، وإيقاظه للعمل والإنتاج، لا، بل إننا لنستطيع أن نقول: إنَّ من البديهيات أيضاً أن نثبت أن للقرآن الفضل الأكبر لإنتاج العقل الحضاري، العلمي، العالمي، الملائكي، الذي كان ولا يزال أمنية الإنسانية، لقد اعترف بهذا التاريخ المتواتر، ونطق به كبارُ رجالات العلم والسياسة في الشرق والغرب، وملئوا باعترافاتهم الدنيا، أنَّ القرآن ما نزل إلا لهذا ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩)، ومنذ أن استخلف الله آدم عليه السلام في الأرض، وأسجد له ملائكته، وتاب عليه، ثم أهبطه وبنيه جميعاً، قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨). منذ ذلك الحين، ورسالات الله للناس تتنزل ليهديهم ويؤهلهم لهذه الخلافة، ويضم خبرات الأمم مع رسلهم، إلى أن جاء خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلّى الله عليه وسلم، وأنزلت إليه آخر رسالات الله إلى الناس، وكلفه سبحانه رسولاً للناس كافة، ورحمة للعالمين. وإن رحمة الله للعالمين، لا تقتصر على النصيحة والأخلاق، ولكنها تمتد لتشمل كل الجوانب التي تؤثر في حياة الإنسان. إن ما تقوم عليه حياة الناس وتنضبط به معاملاتهم وأمور معاشهم، يشمل السياسة والقيادة والإدارة والسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وكل

مسئوليات الوزارات والمجالس والهيئات والأنظمة المختلفة في المجتمعات المحلية، والعلاقات الدولية، في السلم وفي الحرب، بالإضافة إلى شئون الناس الفكرية والثقافية والاجتماعية والشخصية والروحية والعملية، بل لنقل هي تشمل كل مقومات الحضارة الإنسانية، لهذا فإن الله سبحانه علّم رسوله صلّى الله عليه وسلم كيف يبني حضارة بالناس وللناس. وكان تعليمه له من خلال الوحي بالذكر الحكيم، الذي بين أيدينا قرآناً عربياً غير ذي عوج، وبدراسته وتدبّره يمكن أن نستخرج منهاج بناء الحضارة بكل جوانبها.

مصطلحات وتعريفات: تعريف مصطلح الحضارة

الحضارة في اللغة: "الإقامة في الحَضَر، والحَضَر والحَضْرة والحاضرة والحضارة بفتح الحاء وكسرها سكون الحضر، وهي خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، وحين تُذكر الحضارة في اللغة فإنّه يقصد بها ما هو عكس البداوة، أي سكنى المدن والقرى"[١].

والمعنى اللغويّ هو غير المعنى الاصطلاحيِّ، ولو كان ذا صلة به. ومرادنا في هذا البحث الوقوف على المعنى الاصطلاحيِّ للحضارة، وأوّل من توسّع في الكلام عن الحضارة والتفريق بينها وبين البداوة هو عبد الرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ)، الّذي يرى: " أن الناس حين تخطَّوا في كسبهم للمعاش ما هو ضروري وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة....فيتّخذون القصور والمنازل ويُجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون من استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان"[٢].

---

١ ابن منظور. محمد بن مكرم. **لســان العرب**. بيروت: دار صــادر ، ط١،ج ١٤، ص٦٥؛ وانظر: الفيومي، أحمد بن محمد. **المصباح المنير**. ج ١، ص٢٢٧.

٢ ابن خلدون، عبدالرحمن. **المقدمّة**. بيروت: دار الجيل، ص ١٣٢.

والحضارة في الاصطلاح يراد منها التعبير عن طراز العيش الّذي يسود مجتمعاً من المجتمعات، أي هويّة ذلك المجتمع، وعلى حدّ تعبير رالف لنتون[١]: " فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظَّمة من الأفراد، والحضارة مجموعة منظَّمة من الاستجابات الّتي تعلَّمها الأفراد وأصبحت ميزة المجتمع"[٢].

ونستمع إلى صأمويل هنتنجتون[٣] في تعريفه للحضارة يقول: " فما الّذي نعنيه عندما نتحدّث عن حضارةٍ ما؟ إنّ الحضارة هي كيان ثقافي، فالقرى والأقاليم والمجموعات الإثنيّة والقوميّات والمجموعات الدينيّة لها جميعها ثقافات متميِّزة... وهكذا فإنَّ الحضارات هي أعلى تجمُّع ثقافيّ للناس وأوسع مستوى للهويّة الثقافيّة للشعب ولا يسبقها إلاّ ما يميِّز البشر عن الأنواع الأخرى، وهي تحدَّد في آن معاً بالعناصر الموضوعيّة المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسَّسات، وبالتحديد الذاتيِّ الذي يقوم به الشعب نفسه"[٤].

ويتحدث الشيخ السائح في تعريف الحضارة فيقول: " لفظ الحضـــارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر...هي: الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافية، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية.. ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة –كماً وكيفاً– التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة..

---

١ رالف لنتون: (١٨٩٣ - ١٩٥٣) كان مواطن أمريكي قدير وعالم في مجال الأنطروبولوجيا في منتصف القرن العشرين، من المساهمات الكبيرة التي ساهم بها رالف في علم الأنطروبلوجيا كان تعريف التميز بين الحالة والدور.

٢ رالف لنتون. **شجرة الحضارة**. ترجمة أحمد فخري. مكتبة الإنجلومصريّة، ج١ ، ص ٦٥.

٣ صأمويل فلبس هنتنجتون: (2008 - 1927) أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول.

٤ هانتنغتون، صاموبل. (١٩٩٥). **صدام الحضارات**. بيروت: إصدار مجلة شؤون الأوسط، مركز الدراسات الإستراتيجيّة والبحوث والتوثيق، ص١٨–١٩.

ومنها الأطوار الحضـــارية الكبرى، التي تصـــور انتقال الإنســـان أو الجماعات، من مرحلة إلى مرحلة"[١].

وقد وردت تعريفات اصطلاحية كثيرة جداً للحضارة كلها متشابهة وقريبة من بعضها نكتفي منها بما أوردناها بعاليه، ولكنّ هذا المعنى أخذ يتغيّر بعد قليل، حين انتشر المصطلح في اللغات الأوربّيّة الأخرى.

القسم الثاني: مصطلحات مقاربة:

توجد في اللغة العربية عدة مصطلحات مقاربة لمصطلح الحضارة مثل: ثقافة، ومدنية، يقابلها في الإنجليزية على سبيل المثال: (Culture، Civilization) والذين اشتغلوا بالترجمة لم يلتزموا نمطاً واحداً، فمرة ترجموا (Culture) بالثقافة ومرة بالحضارة، وفعلوا ذات الشيء في (Civilization) فمرة ترجمت بالثقافة ومرة بالحضارة، وهكذا، فبينما تزاحم هذان المصطلحان في اللغات الأوربّيّة، نجد في المؤلَّفات والترجمات العربيّة ثلاثة مصطلحات تقوم بهذا الدور، هي: الحضارة والمدنيّة والثقافة.

وهاهو جورج حدّاد[٢] يضع العبارات الثلاث مقترنة في محاولة لتعريفها، فيقول في الحضارة والمدنيّة والثقافة: "إنّ كلمة حضارة أو مدنيّة مشتقَّة بالأساس من الحضر ومن حياة المدينة، وهناك كلمة باللغات الأجنبيّة لها مفهوم يقرب من مفهوم الحضارة وهي (culture)و(Kultur) بالألمانيّة وترجمتها بالعربيّة هي الثقافة، ومعناها أوسع، ويفهم منها الطريقة التي بموجبها يعيش الشعب ويفكّر، وكثيراً ما تستعمل كلمة (Culture) للدلالة على الحضارة والمدنيّة في اللغات الأجنبيّة، ولذلك قلنا إن كلمة ثقافة لا تكفي لترجمة معناها"[٣].

---

١ السـايح، أحمد عبد الرحيم. (١٩٧٧م). **الحضـارة الإسـلامية**. السـعودية: الجامعة الاسـلامية بالمدينة المنورة ، ط١٠، العدد الثالث.

٢ جورج حداد (١٩٣٤– ٢٧ يونيو ٢٠٠٩)، كاتب وشـاعر وصـحفي أردني، وكان أول من تجرأ من الصـحفيين وامتدح حركة حماس ومؤسسها أحمد ياسين بعدة مقالات في بداية انطلاقتها، المصدر: الموسوعة الحرة.

٣ حداد، جورج. (١٩٨٥م). **المدخل إلى تاريخ الحضارة**. سوريا: مطبعة الجامعة السوريّة، ص ١٧–١٨.

أمّا المصطلح (Culture)، فغالباً ما تُرجم باستخدام كلمة الثقافة، وهي الترجمة الّتي تراعي المعنى اللغويّ لا الاصطلاحيّ. إلاّ أنّ كثيراً من الكتّاب المعاصرين يرون أنّ كلمة ثقافة لا تفي بمعنى المصطلح الغربيّ (culture) كما مرّ معنا سابقاً في كلام جورج حدّاد– لذلك تُرجمت (Culture) إلى العربيّة بحضارة.

يستفاد من النصوص السابقة أنّ الحضارة – سواء اعتبرناها ترجمة لعبارة (Civilization) أو لعبارة (Culture) الأوربيّتين ووفق المعنى الّذي استقرّتا عليه– وواضح للعيان تاريخاً وحاضراً أنّ لكل مجتمع طريقة في العيش تميّزه عن سائر المجتمعات تجعل منه جماعة بشريّة ذات شخصيّة معيّنة ولون متميّز وهويّة خاصّة، هذه الطريقة من العيش الّتي تميّز مجتمعاً عن آخر هي ما يعبَّر عنه بالحضارة، لذلك لا بدّ من أجل الوصول إلى تعريف الحضارة من معرفة العوامل الّتي تجعل للمجتمع طريقته الخاصّة في العيش، وتميّزه عن سائر المجتمعات.

عناصر الحضارة وأركانها

لما كانت الحضارة هي ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة فعناصر الحضارة أو أركانها الأساسية تتمثل في هذه الكليات الثلاثة: الإنسان– الحياة– الكون.

القسم الأول: الإنسان:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وجعله خليفة له في أرضه وأسجد له ملائكته، لذا كان من الواضح أن الإنسان أهم هذه العناصر الثلاثة التي تكون الحضارة، إذ هو العنصر الفعال والمؤثر قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة إنما هي عمارة الأرض بمعناها الشامل العام، وهي تشمل فيما تشمل إقامة مجتمع إنساني سليم، وإشادة حضارة إنسانية شاملة. يقول الميداني في هذا الصدد: " وبإحصاء صور التقدم والرقي عند الإنسان نستطيع أن نرجعها إلى الأصناف الثلاثة التالية:

الصنف الأول: ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش، وأسباب الرفاهية والنعيم... ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم العمراني والزراعي والصناعي والصحي والأدبي والفني، والتقدم في الإنتاج الحيواني...

الصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني، ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء...ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية، والحقوقية، والمالية، والأحوال الشخصية، والشامل للأخلاق والتقاليد والعادات الفاضلات.

الصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان فردًا كان أم جماعة إلى السعادة الخالدة...والوجود الأبدي، الذي ينتقل من حياة جسدية مادية يكون فيها الابتلاء، إلى حياة نفسية روحية برزخية يكون فيها بعض الجزاء، ثم إلى معاد جسدي نفسي وروحي يكون فيه كامل الجزاء. ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الفكري القائم على التأملات الحكمية...التي تحمل اسم المعتقدات والواجبات الدينية وسائر التكاليف والآداب الشرعية الإسلامية"[١].

فالإنسان كائن كرمه الله عز وجل يتميز بخصائص فكرية وعقلية ويختلف شكلياً من منطقة لأخرى في الحجم والطول ولون البشرة وهيئة الشعر، والإنسان حيث وجد يصنع الحضارة ولديه القدرة على التكيف مع البيئة والاستمرار بالمعيشة والواقع أن الحضارة هي ظاهرة إنسانية، بمعنى أن الإنسان حيث وجد يصنع الحضارة ومن ثم فإن قدرة الإنسان على التكيف مع بيئته تعتبر حضارة. وعليه فإن القول بتفوق حضارة جنس بشري على الآخر اعتماداً على اللون والعرق هو أمر مستحيل الاعتقاد به. والإنسان عندما ينتقل من البيئة الأصلية إلى بيئة مخالفة يندمج في البيئة الجديدة وحضارتها.

يعتبر مالك بن نبي الحضارة كتلة مركبة من عناصر، وعناصر تركيب الحضارة ليست أشياء ومنتجات حضارية بل هي أصول تفرضها طبيعة المنتجات وشروط تطور الإنتاج، فيقول: " إنّ

---

١ الميداني. **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها**. ١/١٩-٢٠

المنتوج الحضاري هو كل ما ينتجه المجتمع في عالم الأشياء أو عالم الأفكار، فكل مفهوم في عالم المفهومات، وكل شخص من عالم الأشخاص باعتباره معادلة كشخصية أنتجتها ظروف التاريخ وشروط التطور كل عيّنة من هذه العيّنات هي منتوج حضاري "(١).

ويحدد الميداني سبل تحقيق الرقي الحضاري فيقول: " وفي هذا الإطار يمكن أن نجمل السبل الكفيلة بتحقيق التقدم والرقي الحضاريين فيما يلي:

١- ما ينزل به الوحي، أو يفيض به الإلهام.

٢- ما يتوصل إليه العقل بالبحث العلمي.

٣- ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاختبار والتجربة والممارسة التطبيقية مع الملاحظة الدقيقة لجوانب الخطأ والنقص، وما يستدعيه الكمال. "٢.

إذن، فالإسلام في حقيقته مصدر الحضارة الإنسانية التي شعّ نورها بامتداد الدعوة الإسلامية بعد الاستقرار في المدينة وبناء الدولة فيها عقب اكتمال بناء الفرد في مكة، وذلك لأن الإسلام هو دستور التقدم الإنساني بالقرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة. فكل ما يعد تقدماً وعمراناً هو من الإسلام، وكل تخلف مضاد للتقدم ليس من الإسلام في شيء. وفي ذلك يقول مالك بن نبي: " فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن يبدل نمط أو زي لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه.. ولكن المهم أن نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة، والأخلاق، والاقتصاد وكافة المجالات وبكلمة واحدة أن نقلع ونصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي حتى تنطلق طاقته لتصفيته من عالمه الخارجي"(٣).

---

١ مالك بن نبي، **مشكلة الحضارة**. بيروت: دار الفكر، ص٨٢

٢ الميداني. **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها**. ٦٥١/١.

٣ مالك بن نبي. **شروط النهضة**. ص ٣٢.

القسم الثاني: الحياة:

ولما كانت الحياة التي نعيشها عنصراً أساسياً وركناً مهماً من أركان الحضارة كما ورد سابقاً من تعريفات الحضارة، نجد أن القرآن الكريم- أساس الحضارات- قد تحدث عن هذا الجانب من الحياة بتفصيلات كثيرة، ولما كانت رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل، فمن الضروري أن تكون الحضارة القائمة على هذه الرسالة حضارة متطورة، تستطيع أن تسع كل تطورات الحياة الإنسانية؛ وتحقق ما يخدم المجتمع الإنساني، بحيث تواجه ما يجدّ في حياة البشر من تطورات في شتى المجالات، ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، ولذلك أقامت أساس تشريعاتها، وقوانينها، وآدابها على أصلين ثابتين هما: الكتاب والسنة، فنرى المبادئ والأصول الكلية جميعها تعود إليهما.

جاء في تاريخ الحضارة: " إن فهم الحياة وفقاً لتلك الحقيقتين، يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجانب الأخر، فكل منها عندما ينفصل عن الآخر ويصبح بمعزل عنه يغدو باطلاً من الأمر وخارجاً عن معنى الحياة وحقيقتها...إن رجل الحضارة الإنسانية يقبل على الحياة إقبال العارفين بها المستأنس لها مهما كانت حاله وظروفه، فلم يكن يتبرم بها لضيق ألمّ به، ولم يكن ينتشي بها أو يلهث وراءها للذة نالته منها، واستطاع رجل الحضارة الإنسانية نتيجة لفهمه للحياة أن يعلم متى ينبغي أن يكون ضنيناً بالحياة محافظاً عليها ومتى يجب أن يتحول فيصبح سخياً بها"[١].

ولما كانت الأسس الفكرية لكل هذه الحضارات غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية. ولهذا كان لحضارة القرآن الأثر البالغ في بقية الحضارات، لذلك نستمع إلى علي عفيفي يقول: " ولهذا فقد اتفق الباحثون المنصفون على أن الحضارة الإسلامية كانت لها آثار بالغة في الحضارة الغربية، تتمثل في: تأثير

١ ويل دورانت. (١٩٢٤م). **تاريخ الحضارة**. طهران: انتشارات اقبال، ص ٢٥٦.

مبادئ الحضارة الإسلامية تأثيرًا كبيرًا في حركات الإصلاح الدينية التي قامت في أوروبا منذ القرن السابع الميلادي حتى عصر النهضة الحديثة، فالإسلام الذي أعلن وحدانية الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن التجسيم والتشبيه والتعطيل، كما أعلن استقلال الإنسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة مخلوق أيًا كانت منزلته، كان عاملاً كبيرًا في تفتيح أذهان شعوب أوروبا إلى هذه المبادئ السامية والتأثر بها مع فتوحات الإسلام في الشرق والغرب، إذ قام في القرن السابع الميلادي في الأوروبيين من ينكر عبادة الصور، ثم قام بعدهم من ينكر الوساطة بين الله وعباده، ويدعو إلى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيدًا عن سلطان رجال الدين ومراقبتهم، ويؤكد كثير من الباحثين أن لوثر في حركته الإصلاحية كان متأثرًا بما قرأه عن العلماء المسلمين من آراء في العقيدة والوحي، وقد كانت الجامعات الأوروبية في عصره لا تزال تعتمد على كتب العلماء المسلمين التي ترجمت إلى اللاتينية "(١).

وقد اتجه مالك بن نبي نحو إبراز مشكلة العالم النامي باعتباره قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء، فيقول: " إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى مستوى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها "(٢). ذلك لأن بناء الحضارة لا يتم عن طريق الصدفة، بل يتطلّب نظرة منهجية تعتمد على التحليل ومعرفة عوامل البناء.

وبنظرة فاحصة نستطيع أن نبين أن الحضارة الإنسانية تنظر للحياة التي نعيشها حياة متكاملة الجوانب لا يطغى جانب على آخر ولا يتجاوز جانب من الجوانب الحدود المسموح بها.

---

١ عفيفي، علي. (١٩٩٨م). **مجلة الوعي الإسلامي الكويتية**، العدد الثامن.

٢ مالك بن نبي. (١٩٩٥م). **مشكلة الثقافة**. بيروت: دار الفكر، ص٣٩

القسم الثالث: الكون:

أما العنصر الثالث من عناصر الحضارة، فهو الكون الذي نعيش فيه ونشاهده بكل ما فيه من خلق، فنجد أن القرآن الكريم عندما تحدث عن الكون أوضح لنا أن كل ما نراه من الكون ومظاهره مسخر لخدمتنا، وتدبير أسباب عيشنا، وتحقيق شروط رفاهيتنا، فقال جل شأنه : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، (لقمان: ٢٠). من ناحية أخرى أبان لنا القرآن الكريم أن المكونات التي يراها الإنسان من حوله مظاهر خادعة فيحذره من الانخداع والانغماس فيها، فيقول الله في ذلك: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦). ويربط الكاتب عفيف عبد الفتاح بين هاتين الحقيقتين فيقول: " والسبيل إلى التوفيق بين هاتين الحقيقتين هو أنه يجب أن يمارس الناس دنياهم وأسباب عيشتهم وتقدمهم وبناء حضارتهم بدافع وظيفي وبروح استشعار المسؤولية لا بدافع التعلق والتعشق النفسي، إن الإنسان إذا ربي على هذه التبصرة القرآنية فإنه لن يفر من الدنيا ومسؤولياتها، ولكنه بالمقابل مهما تذوق من نعيم الدنيا ألواناً ومهما لاح له بريقها، فسيبقى كل من عواطفه وأفكاره ويقينه العقلي مشدوداً ومتجهاً إلى النعيم الأكبر يوم القيامة"[١].

ولذلك نجد أن العقيدة الإسلامية مبدأها الأساس أن ما سخره الله سبحانه وتعالى لعباده مما خلقه لهم إنما هي وسائل تعينهم على القيام بالواجب الأساس الذي خلق الله تعالى على أساسه الخلق، وهو عبادته وحده وعدم الإشراك به لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، وإنما وضعها الله تعالى بقصد ابتلاء عباده لينظر كيف يعملون فيها (الملك: ٢).

ووجه القرآن الكريم في كثير من آياته العباد للسير في هذا الكون الفسيح الذي خلقه الله تعالى وسخره لهم شاحذاً الهمم للتفكر والتدبر في هذا الخلق المبدع الذي أبدعه خالق الكون حتى يقف العبد أمام عظمة هذا الخالق، ويعد هذا في حد ذاته مظهراً مهماً من مظاهر التقدم

---

١ طبارة، عفيف عبدالفتاح. **روح الدين الاسلامي**. بيروت: دار العلم للملايين، ص ٢٨٨.

والرقي الحضاري الذي يعتبر الإسلام والقرآن الأساس المتين له، ونستمع في هذا الاتجاه لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، (الأعراف:١٨٥).

ومن الجدير بالملاحظة أن القرآن لفت أنظار العوام من الناس إلى معرفة الحقائق الدينية عن طريق دلائلها الكونية القريبة، التي لا تحتاج أكثر من تذكير بها، وراعى حالتهم الفكرية، غير العاملة في معرفة الدلائل وعقلها، وإدراك الحقائق بها، فهم بحاجة إلى من يذكرهم وينبههم عن طريق أسماعهم، ويكشف لهم اقتران الحقائق الدينية بأدلتها الكونية التي يشاهدونها، في أنفسهم وفيما حولهم من الأدلة القريبة التي لا تتطلب جهداً فكرياً فوق استطاعتهم المعتادة، ففي لفت نظر الدهماء من الناس بشكل عام إلى آيات الله في الكون عرض القرآن أدلة واضحة، لا تحتاج إلى تفكير كثير، وبين أن فيها دلائل لقوم يسمعون، إشارة إلى أن لفت نظرهم إليها بالقول كاف لأن يجعلهم يفهمونها، فليست هي من القضايا الصعبة حتى تحتاج إلى جهد عقلي، وليست من العويصات حتى تحتاج إلى تفكر وبحث متتابعين، مما لا يصبر عليه إلا العلماء الباحثون، وإنما هي من البدهيات، أو دلائل قريبة منها. فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (الروم:٢٣).

ولفت القرآن أنظار الفئة العاقلة من الناس إلى إدراك الحقائق التي تحتاج إلى شيء من التعقل والتأمل، ووضع أمامهم مجالات فكرية أرقى مستوى من المجالات التي وضعها أمام الدهماء، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الآية، (الرعد: ٤). فمستوى إدراك القطع المتجاورات من الأرض، والجنات، وما فيها من أشجار مختلفة الصفات، ومختلفة الثمرات إذ بعضها أفضل من بعض في الأكل، مع أنها تستقي بماء واحد، أمر يحتاج إلى تأمل وراء البديهة، وإلى تعقل مناسب، ولا يكفي فيه مجرد لفت النظر إليه بالقول، بل لا بد فيه من التأمل والتعقل، بضبط شرود النفس مع الأهواء، ولذلك ذيل الله الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم ارتقى القرآن إلى مستوى ثالث من مستويات الناس، وهو مستوى العلماء الباحثين عن دقائق الأمور، القادرين على الغوص إلى أعماق من المعرفة، لا يغوص إليها غيرهم في الأحوال العادية، فوضع أمام هؤلاء مجالات فكرية واسعة، تحتاج إلى بحث عميق، وتتبع دقيق، ليصلوا عن طريق البحث والتتبع إلى إدراك الحقائق الدينية إدراكًا يتناسب مع ما وهبهم الله من قدرات بحث، وتفكر دائم، واستنباط.

وفي لفت أنظار الفئة العليا من الناس، وهي فئة المتفكرين، الباحثين العلميين، للحقائق، واستنباطها من الأعماق، عن طريق أدلتها الدقيقة، عرض القرآن أدلة يحتاج استقصاؤها واستيعاب دقائقها إلى بحث وتتبع، وجهد فكري كثير، ونسب عالية من القدرات الفكرية. ومن أمثلة ذلك (آية الرعد: ٣).

فمستوى البحث في الأرض، وكيفية تكوينها، وفي الجبال وسر وجودها، وفي الأنهار ومسالك ينابيعها ومصادرها وموادرها، وفي الثمرات وكون كل منها مؤلفًا من زوجين اثنين مذكر ومؤنث، وفي النظام الدقيق الذي يغشي الله فيه الليل النهار، مستوى دقيق لا يحسنه ولا يستطيعه إلا الباحثون العلميون الذين يتابعون البحث والتفكر والاستنباط، ولذلك ذيل الله الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ومن أمثلة مراعاة الإسلام مستويات الناس الفكرية في بياناته التعليمية، نص قرآني في سورة النحل جمع الله فيه طائفة من الأدلة الكونية، ذات مستويات ثلاثة، تناسب مستويات فئات الناس الثلاث، وهي فئة الدهماء بشكل عام، ثم فئة المتعقلين، ثم فئة المتفكرين الباحثين العلميين، المتتبعين دقائق المعرفة. وختمت المجموعة الأولى منها بقوله (توقنون) وهم الذين يناسبهم أن توضع أمامهم أدلة قريبة، لا يحتاج إدراكها وفهمها إلى جهد فكري، بل يكفي لإدراكها التذكير القولي بها لبداهتها، أو لكونها قريبة من الأمور البدهية.

وختمت المجموعة الثانية منها بقول الله تعالى: (يتفكَّرون) وهم الذين تعمل أفكارهم عادة في تصيد الأدلة وعقلها، وربطها بما تدل عليه من حقائق، وهؤلاء يناسبهم أن تلفت أنظارهم

إلى أدلة ذات مستوى متوسط، مما يتنبه إليه عادة المتعقلون، الذين يلذ لهم فهم ارتباط الأمور بعضها ببعض، ويحلو لهم ربط الأدلة بما تدل عليه من حقائق.

وختمت المجموعة الثالثة منها بقوله (يَتفكَّرون) وهم الباحثون العلميون، الذين يتفكرون باستمرار في ظواهر الأشياء، ويغوصون إلى بواطنها، ويستنبطون من أعماق المباحث الفكرية حقائق المعرفة.

أما النص القرآني من سورة النحل الذي جمع هذه المستويات الثلاثة، مع التدرج فيها من الأدنى إلى الأعلى فهو قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (حتى قوله) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٦٥-٦٩).

ففي المستوى الأول يلفت النص أنظار قوم يسمعون إلى الأدلة الكونية التي يحتوي عليها، إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، ويلاحظ أن إدراك هذه الظاهرة الكونية من الأمور التي لا يحتاج البحث فيها إلى جهد عقلي، بل يكفي فيها التذكير بالقول، حتى يدرك السامعون ما تحتوي عليه من أدلة كونية تدل على قدرة الخالق العظيم وحكمته.

وفي المستوى الأوسط يلفت النص أنظار قوم يعقلون إلى الأدلة الكونية التي يحتوي عليها ما يخلقه الله في بطون النعام من اللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين صنفين مختلفين اختلافًا شديدًا هما الفرث والدم المستقذران اللذان يحرم أكلهما...ويلاحظ أن إدراك هذه الظواهر الكونية من الأمور التي تحتاج إلى تعقل وتبصر، لما فيها من حاجة إلى فهم الأصناف المختلفة المتباينة في خصائصها، وكيفية استخلاص صنف آخر منها، كاستخلاص اللبن السائغ من بين فرث ودم.

وفي المستوى الأعلى يلفت النص أنظار قوم يتفكرون إلى الأدلة الكونية التي لا يدركها إدراكًا تامًّا إلا الباحثون العلميون؛ إذ يلفت أنظارهم إلى دراسة مملكة النحل، دراسة مستفيضة، تتناول بحث سر الغريزة التي خلقها الله في النحل، وسر الإلهام الرباني الذي ألقاه الله إليها...وبدهي

أن إدراك هذه الآيات الكونية في مملكة النحل مما يحتاج إلى بحث عملي دقيق، وتفكر دائب. واختبارات وتجارب متتابعة، وهذه إنما يقوم بها الباحثون العلميون المتفكرون(١).

مجالات الحضارة القرآنية

القسم الأول: العلاقات الاجتماعية والاقتصاد:

كانت البشرية قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم تعيش في ظلمات كثيرة، وتتخبط في الجهل، وكثُرتْ الوثنية، ووصل عدد الآلهة التي تُعبد من دون الله إلى عدد لم تعهده البشرية من قبل، وانتشرت المفاسد والشرور والمساوئ الأخلاقية، وشمل الفساد كل بقاع الأرض، ثم شاء الله أن يرسل نورًا يزيل به ما على الأرض من ظُلمة، فأشرقت شمس الإسلام، وتغيرت الموازين، ودبت الحياة في العالم. وأقام الإسلام مجتمعًا متكاملاً، فبنى الفرد المسلم الصالح، فكان أساسًا لبناء المجتمع المسلم الصالح المترابط الذي يسير على منهج الله سبحانه، وكان لابد من تكوين مجتمع مسلم؛ ليحمل عبء هذه الدعوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدفاع عنها بعد موته، ونشرها في كل أرجاء الدنيا. وقد انشغل الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة في مكة بتربية الفرد المسلم؛ كأساس لبناء المجتمع المسلم.

ومن البدهي على كل نظام يدعي العالمية أن يحترم قدرات أتباعه، وأن يقدّر إنجازاتهم بغض النظر عن أعراقهم وخلفياتهم الجغرافية، أو الاجتماعية أو اللغوية أو غيرها. فهو يقيّم الناس حسب ما يستطيعون فعله، لا وفق ما جبلوا عليه من صفات خلقية لوناً كانت أم عرقاً. فالناس في نظر الإسلام سواسية أما الاختلافات الطبيعية بين الناس فإنها لمقاصد وحكم تتطلب منا التدبر والتقدير لا الازدراء والاحتقار وسلب الحقوق. قال الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢)، وقال سيد

---

١ الميداني. **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها**. ٢٣٧/١

الخلق صلى الله عليه وسلم: « لا فرق بين عربي ولا عجمي ولا أحمر ولا أسود إلا بالتقوى»([1]). وقال صلى الله عليه وسلم: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »([2]) .

فالإسلام يرفض كل أشكال الاستعلاء على الخلق والتكبر والتمييز العنصري البغيض الذي ينقص من آدمية الإنسان وتكريمه الرباني. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الاسراء:٧٠) وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

" ولقد أذهلت المساواة كما يدعو إليها وآلياتها العملية والتطبيقية واحدة من أكبر شعراء الهند ساروجيني نايدو (Sarojni Naidu) حتى عبرت عن هذه المساواة بقولها:

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أرسى وطبق الديموقراطية الحقيقية؛ فالمساواة الإسلامية تتجلى كل يوم خمس مرات، عندما ينادى المؤذن للصلاة فيجتمع المسلمون زرافات ووحداناً، حينها يقف الحاكم والمحكوم جنباً إلى جنب ساجدين لله ومردّدين "الله أكبر" لقد أذهلني هذا التضامن الحقيقي الذي يجعل الإنسان أخاً فطرياً لأخيه الإنسان، فعندما نقابل مصرياً أو جزائرياً أو تركياً في لندن مثلاً، فمصر مجرد بلد ذاك الشخص وكذلك الهند أو تركيا.

ولقد أذهلت تلك الأسس العالمية للمساواة بين الخلق في شريعة الإسلام مفكرين وعلماء كثر، فهذا ر.ل.ميليما رئيس القسم الإسلامي في المتحف الهولندي بامستردام، يقول: إن مبدأ الإخوة الإسلامية الذي يضم تحت جناحه كافة البشر بصرف النظر عن اللون والجنس ..هذا المبدأ الذي جعل الإسلام الدين الوحيد القادر على تطبيق الأخوة في حيز الواقع لا في المجال النظري فحسب؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يعرفون أنهم جميعاً إخوة في الله.

---

١ ابن حنبل، أحمد. **مسند أحمد بن حنبل**. تعليق: شعيب الأرنؤوط. باب رجل من أصحاب النبي، رقم: ٢٣٥٣٦ ، ٥ / ٤١١، إسناده صحيح.

٢ مسلم. **صحيح مسلم**. ٨ / ١١

كما يقول لايتز: في المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأي إمام يمكنه أن يؤم المصلين ولا يوجد أبهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون"

وهذه ديبرا بوتر(Deborah Potter) تقول: الإسلام نظام عالمي وديني كوني جاء لجميع الناس في كل العصور، ولم يحدث أن أقرّ الإسلام آية تفرقة بسبب الوقت أو الوطن أو الثقافة أو الطبقة، فكل مؤمن بالحقيقة مسلم يتمتع بالأخوة الإسلامية مع كافة الناس في كل عصر ومصر, هذا هو سر قوة الإسلام [١].

وجاء الإسلام الحنيف وفي جوهر مقاصده بقاء الإنسان ناهضاً بتبعاته يسعد بحياة آمنة لا يرى فيها ظلماً ولا هضماً. عندما تحدثت الآيات القرآنية عن العلاقات الاجتماعية إنما كانت تتحدث عن مناهج ونظم تحكم حياة الأمم والشعوب فيما بينها وعلاقاتها مع غيرها من الأمم والشعوب الأخرى، فقد وضع المنهج القرآني في تنظيمه للحياة القوانين والقواعد التي تحكم علاقات الأفراد بعضهم ببعض وعلاقات المجتمعات فيما بينها ونظمت طريقة المعاملات المالية والاقتصادية بين تلك الشعوب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٦)، ويوجهنا سبحانه في هذا الاتجاه (الإسراء:٢٩،٣٠)، ويلفت نظرنا إلى التوسط (الفرقان: ٦٧)، ويأمر سبحانه بالإنفاق (الطلاق: ٧)، وغيرها كثير من الآيات القرآنية تشير إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة، والعلاقات السياسية بين الدول والمجتمعات، وإلى تنظيم العلائق الافتصادية التي تحكم التعامل بين المجتمعات.

وبين الله سبحانه وتعالى أن هذا المال فتنة وحذرنا عن الاستغناء به عن الله فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن: ١٥).

---

[١] الشحود، علي نايف. **الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل**. ٥ / ٢٦١.

ومما يجب على المسلم معرفته عن المال، حقائق ثابتة أثبتتها النصوص الشرعية المعتبرة في العقيدة الإسلامية السمحة وهي: أن المال ملك لله كما قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآية، (المنافقون:٧)، وهذا المال الذي هو ملك لله تعالى فقد سخره الله للإنسان (لقمان: ٢٠) وأن الإنسان مستخلف في هذا المال لذلك يجب عليه أن يحسن التصرف فيما استخلف فيه .

وبناء على هذه المبادئ والأسس السابقة يكون للإنسان الحق في التصرف في ماله كسبًا وإنفاقًا وإدارة، وهي حقوق مترتبة على ملكية الإنسان للمال الذي جاء من طريق شرعي.

وتعتبر الحضارة الإسلامية الرائدة في مجال تنظيم الأموال الاقتصادية والموارد المالية للأمة الإسلامية وعرفت البشرية أول وزارة للمالية على نفس النمط الذي يسود الآن في أرقى الدول المتحضرة وهذه الوزارة الرائدة كانت 'بيت المال'، ويعتبر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من أنشأ بيت المال بسبب الفتوحات العظيمة التي تمت في عهده والخيرات التي تدفقت على الدولة المسلمة، فقد روى ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين فلقيه في صلاة العشاء الآخرة فسلم عليه ثم سأله عن الناس ثم قال لأبي هريرة: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم، قال: ماذا تقول؟ قلت: مائة ألف، مائة ألف، مائة ألف حتى عددت خمسًا، فقال عمر، إنك ناعس فارجع إلى أهلك فنم, فإذا أصبحت فأتني، قال أبو هريرة: فغدوت إليه فقال: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم، قال عمر: 'أطيب' قلت: نعم لا أعلم إلا ذلك، فقال عمر للناس: إنه قد قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعده لكم عدًا وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، ونشأت من يومها فكرة بيت المال"[١].

القسم الثاني: تنظيم العلاقات الدولية والتشريع والحكم:

إنّ العلاقات الدولية تحتكم في التصوّر الإسلامي إلى مبادئ وقيم ثابتة في إطار احترام التعددّ الثقافي والسياسي، وتقارب الشعوب وتعارفها (الحجرات:١٣).

---

١ المرجع السابق. ٥ / ٢٥٥

وإن نظام الحكم الإسلامي له أسسه وقوانينه الواضحة المستمدة من القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأهمية الحكم في الإسلام فقد اهتم الإسلام ببيان ما على الحاكم والمحكوم، فحذر الحاكم من اتباع الهوى وشهوات النفس، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الآية، (المائدة: ٤٩). وحذر الله –سبحانه– المحكوم من العصيان دون سبب مقبول شرعًا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ الآية، (النساء: ٥٩). وحرص الإسلام على أن يسود العدل بين جميع الناس، وحذر من الظلم وعواقبه، حتى مع غير المسلمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾(النساء: ٥٨). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »([1]).

وقدم الإسلام للمجتمع البشرى أسساً للحياة، تَكْفُل السلامة لهذا المجتمع، وإن اختلفت عقائد الدول وأديانها. فنظم التعاون بين الأمم في كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، كما قدَّم النظم المناسبة للتخفيف من ويلات الحروب، وكان ما قدمه الإسلام في مجال العلاقات الدولية هو أول تعليمات سامية في هذا المجال عرفتها البشرية. وشرع الإسلام نظام المعاهدات، والسفراء، وتأمين الرسل المبعوثين إلى الدول الأخرى، وكتب رسائل الدعوة لهذه الدول.

تتميز العلاقات الدولية الإنسانية في شريعة الإسلام في جعل حرية العقيدة لغير المسلمين أمراً مقرراً، لأن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه، ذلك لأن الله خلق الناس جميعاً مختلفين في أديانهم وألوانهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولا يزالون كذلك إلى يوم الدين، يؤكد ذلك أن القرآن الكريم أنزل سورة كاملة تحتوي على هذا المفهوم الشامل، وهي (سورة الكافرون).

وبطبيعة الحال يشمل ذلك غير المسلمين، فجعل النظام السياسي الإسلامي الحكم أمانة يجب تحقيق مفهوم العدالة فيها تطبيقاً وتنفيذاً شرعياً كما في آية (النساء: ٥٨).

---

١ مسلم. **صحيح مسلم**. ٨ / ١٨

ولا شك أن وجود السلطة القضائية المستقلة العادلة النزيهة لهو أكبر الضمانات لمحاكمة تتوافر لها عوامل الحيدة والنزاهة والاستقلال. ومن صور المساواة والعدالة في الحكومة، التسوية في مجلس القضاء والاستماع إلى الخصم غير المسلم، وعدم الضيق بهم والحنق عليهم كما جاء ذلك في توجيهات النظم القضائية الإسلامية، وكما معلوم وممارس في سيرة نبي الهدى صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته رضوان الله عليهم أجمعين.

القسم الثالث: شهادات منصفة:

ولدى تتبع ميادين نشاط المسلمين المختلفة، لا بد أن نعرض أمثلة منها: نقدم فيها بيانًا موجزًا عامًّا يعتمد على نقول وشهادات، لنعود إلى التفصيلات المناسبة في الباب الخاص بالآثار التطبيقية للحضارة الإسلامية من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

لقد كان للمسلمين نشاط جم في علمي التاريخ والجغرافيا، ولقد أعجب كثير من العلماء الأوروبيين الذين تفقهوا الحضارة الإسلامية من كتبها، وأكبروا أعمال المؤرخين والجغرافيين المسلمين، أمثال: المقدسي، وابن حوقل، وياقوت الحموي، والمسعودي، والطبري، وابن الأثير، والبلاذري، والبيروني، وأبي الفداء، وابن جبير، وابن سعيد، وابن سعد، وابن خلكان، وابن عساكر، والإدريسي إلى آخرين كثيرين كتبوا في هذين العلمين، وكتبهم تفخر بها المكتبة الإسلامية، ولقد استفاد منها الغربيون فوائد جلى، ونوهوا بها في شتى المناسبات.

وكان للمسلمين نشاط جم في علم الفلك، حيث يذكر كثير من المؤرخين العرب وغيرهم أن نشاط المسلمين في مجال الفلك لا تخطئه العين ولا يستطيع أن يتجاوزه منصف يكتب في تاريخ علم الفلك.

ونقل نظير ذلك غوستاف لوبون في حضارة العرب "نشأت مكانة علم الفلك عند العرب "أي المسلمين" من توسع الرياضيين منهم في الحساب؛ لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات، وحقق العرب طول محيط الأرض بما كان لهم من الأدوات، وأخذوا ارتفاع القطب ودورة

كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر، وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطليموس بـ"١٢" درجة فارجعوه إلى أربع وخمسين أولاً، ثم إلى "٤٢" درجة أي: إلى الصحيح من مقداره تقريبًا"[١].

ويقول جورج سارتون في كتابه (مقدمة في تاريخ العلم): "إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"الفارابي" أعظم الفلاسفة، و"المسعودي" أعظم الجغرافيين، و"الطبري" أعظم المؤرخين"[٢].

هذا، وقد أبدى الباحث اليهودي فرانز روزانتال إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فيقول: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ؛ ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوُّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين، ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة؛ لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جدًّا، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ".

ويقول مسيو ليبري:" لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوربا الحديثة عدة قرون"[٣]. ولقد أشار أيضًا إلى هذا المعنى المؤرخُ الفرنسيُّ الشهير "سديو" في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة؛ بحثًا عن تاريخ المسلمين، وعظيم حضارتهم، ونتاجهم العلمي الهائل.

هذا، ولم ينسَ فضلاء علماء الغرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ونستقي من كتاب "حضارة العرب" لـ"جوستاف لوبون" حيث يقول: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة

---

١ غوستاف لوبون. (١٩٦٩م). **حضارة العرب**. تحقيق :عادل زعيتر. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ سارتون، جورج. (١٩٩١م). **مقدمة في تاريخ العلم**. بيروت: دار المعارف، ٤٥

٣ روزانتال، فرانز. (٢٠٠٧). **مفهوم الحرية في الإسلام**. تحقيق: رضوان السيد ومعن زيادة، دار المدار الإسلامي.

قرون موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدّنُوا أوربا مادة وعقلاً وأخلاقًا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني"[١].

هذا غيض من فيض الدور المتعاظم لرواد الحضـارة الإسـلامية التي نهل منها كثير ممن أتى بعد ذلك وإلا فإن المداد لا يكفي لحصر هذه المساهمات الغفيرة التي خلفها هؤلاء الرواد في مجالات الحضارة بكل أنواعها.

الخاتمة:

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- حتميّة تأثّر الحضارات بعضها ببعض، سواء تأثّراً إيجابيّاً أو تأثّراً سلبيّاً.

٢- دلّت كثير من البحوث العلمية المنصفة – بما لا يقبل الشك – أن الدين ليس معوّقاً للتقدم الحضاري، بل إننا نجد في أكثر الديانات حوافز وبواعث تدعو إلى التطوّر الحضاري.

٣- إنّ الحضارة القرآنية مبنية على أساس القيم الأخلاقية والروحيّة، لا على المقاييس المادية. فكانت قيمة (عبادة اللَّه) هي السائدة في هذه الحضارة، لا قيمة الخضوع للجبت والطاغوت؛ وعلى قيمة الأخوة وانعدام التفاضل إلاّبالتقوى، لا على العنصريات والعصبيات.

٤- الناظر إلى بداية نشوء الحضارة الإسلامية لا يجد فيها أيّ تأثّر أو أي ارتباط بالحضارات السابقة أو المعاصرة لها، لا تأثّراً إيجابيّاً ولا تأثّراً سلبيّاً.

٥- الإسلام أوجد نمطاً من العيش مختلفاً كلّ الاختلاف عن كلّ أنماط العيش السابقة له والمعاصرة، وأحدث انقلاباً جذريّاً في المجتمع بحيث لم يترك ناحية من نواحيه إلاّ وطالها وأحدث فيها التغيير من أساسها.

---

[١] غوستاف لوبون. **حضارة العرب**.

٦- إن الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في تقدم المسلمين يعدّ حقيقة تاريخية لا يشك فيها اثنان ممّن أوتيا نصيباً من العلم، ولكن البعض هنا وهناك يتخذون من الإسلام وسيلة لتبرير جمودهم وتقاعسهم، وتبريراً لكسلهم وتفرّقهم وبالتالي تخلّفهم

٧- يجب علينا أن ندرس الدين دراسة جديدة حتى نحصل على المفهوم الصحيح للحضارة، هذا المفهوم الذي يمكننا أن نستقيه من القرآن الكريم.

لم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي، ولا وليد تيّارات فكريّة متوارثة، ولكنّ هذه الحضارة، كانت وليدة حدث تاريخيّ فريد وهو تنزيل القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله. (١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م). الجامع الصحيح. القاهرة: دار الشعب، القاهرة.

بكر، أبو زيد. (١٤٠٩هـ). حلية طالب العلم، مؤسسة قرطبة.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي. الجامع الصحيح سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

جورج، حدّاد. (١٩٥٨م). المدخل إلى تاريخ الحضارة. دمشق: مطبعة الجامعة السوريّة.

جورج، سارتون. (١٩٩١م). مقدمة في تاريخ العلم. ترجمة: مجموعة من المترجمين. بيروت: دار المعارف.

الحنفي، بدر الدين العيني. (١٤٢٧هـ). عمدة القاري. ملفات وورد من ملتقى أهل الحديث.

خدوري، مجيد. (١٩٩٨م). مفهوم العدل في الإسلام: دراسات في الفكر الديني.

الخطيب، عبد الكريم. التفسير القرآني للقرآن. القاهرة: دار الفكر العربي.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد. المقدمّة. بيروت: دار الجيل.

الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني. (١٩٩٨م). الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم. دمشق: دار القلم.

رالف، لنتون. شجرة الحضارة. ترجمة أحمد فخري. القاهرة: مكتبة الإنجلو مصريّة.

زيغريد، هونكه. (١٩٦٤م). شمس العرب تسطع على الغرب. بيروت: دار الجيل.

السايح، أحمد عبد الرحيم. (١٩٧٧م). الحضارة الإسلامية. المدينة المنورة: الجامعة الاسلامية.

سيديو. (١٣٠٩هـ) خلاصة تاريخ العرب. ترجمة علي باشا مبارك. مصر: مطبعة محمد أفندي.

الشحود، علي بن نايف. (١٩٦٤م). الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل.

صامويل، هانتنغتون. (١٩٩٥م). صدام الحضارات. إصدار مجلة شؤون الأوسط، بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجيّة والبحوث والتوثيق.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر. (٢٠٠٠). جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة.

غوستاف، لوبون. (١٩٦٩م). حضارة العرب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فرانز، روزانتال. (٢٠٠٧م). مفهوم الحرية في الإسلام. تحقيق: رضوان السيد معن زيادة. بيروت: دار المدار الإسلامي.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري. (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: هشام سمير البخاري. الرياض: المملكة العربية السعودية.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (١٣٩٣، ١٩٧٣م). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. بيروت: دار الكتاب العربي. ط٢.

محمد، أبو زهرة. (١٩٦٤م). العلاقات الدولية في الإسلام. القاهرة: الدار القومية.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري. (١٤٢٧هـ). صحيح مسلم. بيروت: دار الجيل.

المناوي، محمد عبد الرؤوف. (١٤١٠هـ). التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت: دمشق.

موريس، كروزيه. (١٩٦٤م). تاريخ الحضارات العامّ. نقله إلى العربيّة: فريد داغر وفؤاد أبو ريحان. بيروت: منشورات عويدات.

ويل، دورانت. (١٣٤٣هـ). تاريخ الحضارة الكتاب: الرابع:عصر الايمان. طهران: انتشارات اقبال.